قصة مصرية

الصعلوك

بقلم القصصى الكبير الأستاذ محمود تيمور

الاستاذ محمود تيمور قاص لا ضرب له ، يتخير لشخصياته القصصية روحها التى تنفحها بالحياة ، وأساليبها العامية التى يأبى الآن يبرزها بها ، وهو الى ذلك بعيد الشهرة فى هذا الضرب من ضروب الأدب الممتاز ، فقد ترجمت له بضع قصص الى لغات أجنبية ، وانه ليسر « المعرفة » أن تمتع قراءها بهذه القصة التى دبجها يراعته ؟ المحرر

دخلت نبيهة على سيدتها وحيدة هانم ، وأخبرتها بأن صلاح افندى حضر ، وأنه يطلب مقابلتها فى إلحاح ورجاء .

كانت وحيدة هانم فى ذلك الوقت مستلقية على مقعد طويل ، وفى يدها مجلة من مجلات (المودة) تتفرج عليها ، فلما سمعت كلام نبيهة التفتت إليها غاضبة وقالت :

— كيف يجرؤ على الظهور فى منزلى بعد أن طردته أمس شر طردة ؟

كان فى استطاعتها أن تأمر حسن السفرجى بأن يذهب إليه ويخرجه من المنزل فى الحال ، طوعاً أو كرهاً ، ولكنها رأت نفسها بلا عمل ، وأنها فى حاجة لأن تشغل نفسها بشىء ما على سبيل التسلية ، فقامت من فورها وخرجت قاصدة حجرة الزوار .

ووحيدة هانم أرملة من الذوات تبلغ الثلاثين من عمرها ، تعيش وفق مزاجها ، لها حلاوة يحس بها الانسان بروحه ، ولا يستطيع التعبير عنها بلسانه ، كل قطعة فى جسمها تتكلم ، وكل حركة من حركاتها غنج ودلال .

أما صلاح افندى فشاب ليس فيه شىء من الجمال ، خلقة مشوهة مخيفة تضرب بها الأمثال ، ليس له مورد غير القمار ، ويساعده الحظ أحياناً فيربح مبالغ لا يستهان بها ، له اتصال بالعائلات الراقية ، والسيدات يحببن مجلسه ، يغنى ويمثل أمامهن بعض الأدوار الهزلية ، ويحظى على مائدتهن بأفخر المأكولات وأحسن المشروب ، وينال منهن شيئاً يذكر من المال .

دخلت وحيدة حجرة الضيوف ووقفت أمام صلاح وقفة الغاضب المتكبر وقالت :

— كيف تجرؤ ياوقح على الحضور إلى منزلى بعد الذى صدر منك أمس ؟ أنسيت مافعلته وما تلفظت به ؟ فأجاب صلاح وهو مطأطىء الرأس :

— كنت سكران ياهانم ، والسكران معذور .

— سكران فى عينك وعين أبوك ، رجل دون ابن كلب ... كيف يخطر على بالك أن أقبلك ثانيا فى منزلى بعد هذه الفضيحة الشائنة التى ألصقتها بى ؟

— فضيحة ؟ معاذ الله !

— إخرص. ألم تزعق بأعلى صوتك أمام جميع السيدات بأنك تحبنى... وأنك تريد تقبيلى..؟ لم ينقصنى إلا أن يحبنى رجل بشع صعلوك مثلك . كنت تستحق على قولك هذا تقطيع لسانك ...

— وأكثر من تقطيع لسانى، كنت أستحق أن أذبح ، وأن ترموا بجسدى النجس للكلاب ... ولكن هل يؤاخذ السكران على كلام ياهانم ؟ أقسم لك بأنى لم أكن أشعر بنفسى أين كنت ، ومن كان حولى ، وماذا قلت ، كله كان خيالا ... حلماً فظيعا لا أعرف له مبدأ من نهاية .

— سكران غير سكران ... ليس لى شأن بذلك . المهم أنك أسأت إلى إساءة لا يمكنى أن أغتفرها لك .

— لا أنكر أن ذنبى عظيم ... لا أنكر أنى دون، ابن كلب، أستحق ضرب الجزم ... والله أرضى أن تخلعى حذاءك وتضربينى به ... ولكنى مع ذلك مازلت أطمع فى رحمتك ...

وجلست وحيدة على (الكنبة) وجعلت تهز رجلها وتقول:

— ... رحمتى ! هه ... ليس عندى رحمة .

واقترب منها صلاح وهو يبتسم فى (تمسكن) وقال:

— والله انت كلك رحمة ، وطيبة، ورقة ، ومستحيل يغضب قلبك على واحد من محاسيبك...

— لا تزيد فى الكلام من غير طائل .

— أنسيت ياوحيدة هانم إخلاصى الكبير لك ؟ ألم أضح بكل شىء فى سبيل خدمتك؟ ألم أضرب وأبطح وأحبس مرة لدفاعى عنك ؟ ألم أعرض حياتى للخطر فى المهمة التى كلفتنى بها فى الصعيد فى العام الماضى ... ؟ وكم غير ذلك ! فهل تنسى كل هذا من أجل غلطة واحدة صدرت منى بلا قصد ...؟

ـ غلطة فظيعة ...

ـ غلطة كبيرة ! إنى معترف بها ؛ ولكن كلما كانت الغلطة كبيرة كلما كان الصفح عظيما ، وأنت أهل لكل عظيم وجليل .

وجلس تحت قدميها وقال :

ـ أقسم بالله العظيم يا وحيدة هانم أنك لو بحثت فى الدنيا كلها عن شخص يخلص لك كاخلاصى ، ويجلك كاجلالى لما وجدت . إنك تجهلين قيمتى الآن ، ولكن بعد موتى سوف تذرفين على الدموع وتقولين : الله يرحمك ياصلاح ، لن أعوضك بعد الآن ، لقد أضحكتنى طويلا وسليتنى كثيراً فمن يضحكنى ويسلينى الآن ...؟

ـ المهرجون كثيرون .

ـ ولكنهم ليسوا مثلى ولا يستطيع أحد أن يأخذ مكانى ... والآن ألا تريدين أن أحدثك بشىء مما فى جعبتى ؟ عندى أخبار الدنيا والآخرة .

ـ تظن أنى صفحت عنك ...؟ لا دا بعدك ...

ـ عندى أخبار من كل لون: سينما ، مسارح ، جواز، طلاق، مشاجرات عائلية ، أزمات سياسية واقتصادية ، كله ، كله ... ألم تسمعى شيئاً عن زكية هانم ؟

ـ مالها ؟

ـ إنها طلقت .

ـ كلام فارغ .

أقسم برأس أبى أنها طلقت أمس. هذه حكاية يطول شرحها سأرويها لك الساعة ، ولكن قبل أن أبدأ بالكلام أتضرع إليك فى طلب واحد .

ـ وما هو يا بارد ؟

ـ هو أن تصفعينى على وجهى عدة صفعات طيبة ... إنى أتكلم الجد والله العظيم . أشعر بأن أصداغى تأكلنى ... هاتى يدك ... والله لابد أن تضربينى ... هيا افعلى ... ها أناذا.

فدت وحيدة يدها وأخذت تضربه على خده وهى تضحك ؛ ولكن صلاح جعل يحتج على هذا النوع من الضرب وقال :

ـ لا ، لا ، هذا ليس ضرباً ... أريد صفعاً محكماً قوياً ... هيا اشتدى فى ضربك ... أقوى من ذلك ... أشد ... أنت مازلت رقيقة القلب نحوى... يدك لاتطاوعك على إيلامى!

ـ وحكاية طلاق زكية هانم ؟

ـ ألا تسمحى قبل ذلك أن آمر حسن السفرجى ليعمل لحسوبك فنجاناً من القهوة ؟

ـ روح فى داهيه.

ـ أطال الله عمرك ياوحيدة هانم ، وأبقاك لى ذخراً لاينفد على ممر السنين .

وقام من فوره ومشى مشية الفقهاء الصعاليك وأخذ يغنى مردداً:

امبارح كنت بقرا فى قرافة المجاورين
وعنها واخد لك رزه من النسوان اللى قاعدين

وخرج وهو يغنى ويرقص ، ووحيدة تقرقع بالضحك، ثم صرخ بأعلى صوته قائلا :

ـ ياحسن! ياسفرجى! يا ابن الكلب! فنجان قهوه مظبوط لسيدك صلاح بك ... حالا ... حالا يا ولد .

وعاد إلى حجرة الضيوف وجلس على الأرض فى مكانه السابق، تحت قدمى وحيدة هانم، وبدأ يروى لها حكاياته ونوادره الشيقة التى لاينضب لها معين ، وكانت وحيدة تصغى له

باهتمام وسرور، وأخيراً تعب صلاح فسكت وأشعل سيجارة، وتمددت وحيدة هانم على الكنبة وأشعلت هى الأخرى سيجارة ، وطواهما الصمت برهة ،وبدأت غبشة الغروب تكتسح المكان، وكل شىء ساكن حولهما ، وكان كل منهما ينفخ دخان سيجارته،وهو تائه فى أحلامه ، وانتهت السيجارة الأولى، فأشعلا ثانية فثالثة ، وهما على حالهما لم يغيرا جلستهما ولم يفتحا فمهما بكلمة ،وقبل أن يشعل صلاح السيجارة الرابعة التفت الى وحيدة وقال لها :

ـ عندى خبر لم أروه لك بعد ... خبر بسيط ، أتريدين أن تسمعيه ؟

فأجابته فى إهمال وخمول وهى مغمضة العين :

ـ قل .

ـ لقد ربحت ألف جنيه .

ففتحت وحيدة عينيها ، ورفعت رأسها وقالت :

ـ ربحت كم ؟

ـ ألف جنيه من ورقة يانصيب .

ـ ألف جنيه مرة واحدة ...؟ كلام فارغ !

ـ أقسم برأسك الغالى على ذلك ، وها هو المبلغ معى ويمكننى أن أريه لك .

وأخرج صلاح من جيبه رزمة من الأوراق المالية وجعل يعدها أمام وحيدة قائلا :

ـ مائة . مائتان. ثلثمائة . أربعمائة ... ألف.

ـ وكيف حضرت إلى هنا ؟ بتاكسى ؟

ـ بالترام .

ـ ألم تخش أن يسرقك أحد ؟

ـ يسرقنى أحد ! وهل وجهى ينم على أنى من أصحاب الألوف ؟

ـ ولكن لماذا لم تخبرنى بذلك قبلا ؟

فتمطى صلاح وقال :

ـ خبر لا يستحق الاهتمام .

ـ عجيبه !

ـ ألم أكسب من القمار ومن السباق مئات من الجنيهات ؟

ـ ولكنك لم تصل إلى الألف .

ـ المبالغ عندى سواء ... كلها نقود ... تدخل جيبى وتخرج منه وأنا لا أشعر بها ، ألا تذكرين الخمسين جنيها التى تبرعت بها فى يوم واحد لجمعية المواساة ... ؟

ـ أذكر .

ـ واليوم سأصرف الألف كلها دفعة واحدة هذا المساء .

ـ تريد أن تصرف الألف جنيه فى ليلة واحدة ؟

ـ ولم لا ؟

ـ والله إنك لتحرضنى على ضربك !

ـ ليتك تفعلين !

ـ أليس فى رأسك ذرة من العقل ؟ ألا يخطر فى بالك ان تشترى لك شيئاً ينفعك ويدر عليك بعض الربح ... أطيان مثلا ، أو تشارك فى عمارة ، أو ... أو ... ؟

فضحك صلاح حتى أدمعت عيناه وقال :

ـ أتريدين أن تجعلينى من أرباب الأملاك ... ؟ حرام عليك ... وحق رأسك الغالى إنى لن أتغير ... سأظل طول حياتى : صلاح المجنون المهرج الذى يسكن فى درب القللى . . . آه يا وحيدة هانم ! أنت لم تفهمينى بعد !

ـ وكيف أفهمك وأنت لغز ؟

ـ كلا ، لست لغزاً ، بل أنا فكرة بسيطة يمكن كل إنسان أن يفهمها إذا استطاع أن يحس بالذى أحس به .

ـ وما الذى تحس به ؟

ـ إنى أحس بكره شديد نحو العالم كله .

ـ لماذا ؟

ـ لأننى مظلوم فيه .

ـ غيرك يحسدك على حياتك الرغدة .

ـ حياتى الرغدة ! اجل ، حياة الصعلكة والتهريج ! ولكن ما رأيك فى سجنى ؟

ـ يا عمرى عليها !!

ـ إن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنى يا وحيدة هانم ! إنه شلفطنى ... مسخنى ... أين عدله إذن ؟

ـ إنك تعترض على حكمته تعالى .

ـ كلا . ولكنى أتفلسف بعض الأحيان ، وفلسفتى هذه تريحنى ، ولى آراء شاذة لا يقبلها العقل السليم ، ولكنها آرائى التى أعتز بها ، والتى أسير فى الحياة على مقتضاها . . . أتعلمين كيف أنفقت المائة جنيه التى كنت أملكها منذ بضعة أشهر ؟

ـ يقولون إنك عشت بها عيشة المومرين أسبوعاً واحداً فى هيليوبوليس بالاس !

ـ لقد عرفت فى هذا الأسبوع معنى العظمة والفخفخة والتبذير .

ـ وفى الغد انتقلت إلى درب القللى !

ـ وأكلت الطعمية عند المعلم عبده المخلاتى !

ـ ألم يكن الأجدر بك أن تعيش بهذا المبلغ شهرين أو ثلاثة فى بحبوحة من العيش ؟

ـ غيرى يستطيع أن يعيش به عاماً كاملا عيشة طيبة ، ولكنها فى نظرى عيشة بهائم ... ليست الحياة أن أعيش كما يعيش الآخرون ، حياة منتظمة ممهدة لا فقر فيها ولا غنى ، إنما الحياة عندى أن أذوق حلوها ومرها ، وأختبر فقرها وغناها ، سفالتها وعظمتها ، أريد أن أمرغ نفسى فيها فأصل إلى قرار هاويتها ، كما أصل إلى ذروة مجدها ؛ هذه هى الحياة فى نظرى أما سواها فلا .

ـ والله إنى لأعتقد أنك سائر بخطى واسعة فى طريق المارستان !

ـ وهذا اعتقادى أنا أيضاً !

ـ ولكنك لم تخبرنى بعد كيف ستصرف الألف جنيه فى ليلة واحدة ؟

ـ كيف أصرفها فى ليلة واحدة ! هل هذا أمر صعب ؟ أعطنى مليون وأريك كيف أصرفه فى ليلة واحدة ... عزومة هائلة ، طاولة البوكر ، شمبانيا ، نساء .

وأخذ صلاح يروى لها كيف يمكنه أن يصرف هذا المبلغ فى ليلة واحدة ، واندفع فى الكلام بلا حساب وهو محلق فى سماء خياله الغريب ، وكان الظلام ينتشر فى الحجرة بسرعة ويلفهما تحت ردائه الكثيف ، فلم يعد يرى أحدهما الآخر إلا كما يرى الانسان الأشباح ، وحل عليهما بعد حين الخمول ، فلم يفكر أحدهما فى إشعال النور ، وهدأت حركاتهما ، وخفت صوتهما ، وقال صلاح :

ـ على فكره . ألم تسمعى عن واحدة اسمها لوليت ؟

ـ يخيل لى أنى سمعت عنها .

ـ لوليت هذه من أشهر غوانى العالم ، رفيقة الأمراء والملوك .

ـ جميلة ؟

ـ هائلة فى حسنها .

ـ هل رأيتها ؟

ـ وكلمتها .

ـ (غور)

ـ وعندى ميعاد معها الليلة .

ـ (إتلهى) .

ـ لما ذا (أتلهى) ومحفظتى عامرة بألف من الجنيهات ... ؟ هذه الألف سأصرفها على لوليت الليلة ... سأصرفها كلها !

ـ هذا جنون .

ـ إنما الجنون أن يكون عندى فلوس وأستطيع أن أمتع نفسى بهذه « المرأة العظيمة » ولا أفعل .

وصمت الاثنان من جديد ، وأقفلا عيونهما ، واستغرقا فى أحلامهما الغريبة ، وبعد حين تكلمت وحيدة قائلة :

ـ تصرف ألف جنيه على لوليت فى ليلة واحدة ؟ ياسلام ! لابد أن تكون لوليت هذه حسنها لا يوصف ... وانها مستحوذة على فكرك !

ـ مستحوذة على فكرى ... ؟ أوه ! ليس إلى هذا الحد ؛ من هى لوليت التى تستطيع أن تستحوذ على فكرى ، وأنت هنا قائمة فى قلبى ...؟ ياسلام ياوحيدة هانم ! ألا تعرفين أن جزمتك تساوى ألف واحدة مثل لوليت ؟

ـ يا سلام ...!

ـ ألا تصدقينى ؟

ـ كلام فارغ !

ـ كلام فارغ ؟ إذن أنا كذاب ... أنا الذى لو تكلمت لأسمعتك أشياء لا يخطر على بالك أن تسمعيها منى .

وصمتا أيضاً ، ولكنه كان صمتا مضطربا يجيش بشتى الانفعالات ، وتنهدت وحيدة وقالت ، وصوتها لا يكاد يسمع :

ـ طبعاً تستطيع أن تستحوذ على لوليت بكل سهولة ؛ من يرفض ألف جنيه لأجل ليلة واحدة ؟

وشعر صلاح كأن تياراً كهربائياً قد مس جسمه ، وارتعشت شفتاه وقال :

ـ صحيح . من يرفض الف جنيه لأجل ليلة واحدة ...؟

ثم صمت على الرغم منه ، ومرت برهة شعر فيها صلاح أنه يحترق ، وأخيراً ، استجمع قواه وفتح عينيه على آخرهما ، والتفت إليها وقال :

ـ حتى انت ... لاترفضين ؟

وأجابت وحيدة وهى مقفلة العينين :

ـ ماذا يهم ... ليلة واحدة ؟

فقفز صلاح ورمى بنفسه على يديها وأخذ يقبلها بجنون ، ثم رفع رأسه وأدناه من رأسها وهم أن يقبلها فى فمها ، ولكن ـ بغتة ـ أنيرت الحجرة ودخل حسن السفرجى بالقهوة !

وقام صلاح وقد شعر كأن دشاً بارداً انسكب على رأسه ، ونظر إلى الخادم نظرة شذراء وقال:

ـ ماذا تريد ؟

ـ أحضرت القهوة يا أفندم .

ـ قهوة فى عينك ، يا ابن الكلب ... تريد شمبانيا ... شمبانيا ... هات شمبانيا ...

وكان يصرخ بانفعال ، فخرج السفرجى مهرولا ، ولبى طلبه فى الحال ، وأقفل صلاح باب الحجرة، ووقف بجوار المائدة ينظر إلى القهوة وإلى الشمبانيا ، ثم صب كأساً وشربه دفعة واحدة ، ثم الثانى، والثالث ، والرابع بالتتابع ، وملأ الخامس ودفعه ليشربه ، ولكن حانت منه التفاتة إلى مرآة بجواره انعكست عليها صورة وجهه ، وحول نظره من المرآة إلى وحيدة وكانت ممددة على الكنبة ينبعث منها سحر وجلال ، فارتعش وتقلص وجهه بابتسامة شنيعة ، وأخذ ينظر بالتتابع إلى صورته فى المرآة ، ثم إلى وحيدة وعيناه تزدادان احمراراً ، ثم أخرج الأوراق المالية من جيبه وجعل يدعكها بين أصابعه دعكا عصبياً، وبغتة رمى بالكأس بقوة على الأرض وصرخ قائلا :

ـ كلا ، لا تقبلى ، لا تقبلى .

ونظرت اليه وحيدة فى دهشة وغضب وقالت :

ـ ماذا ...؟

فهرع صلاح إليها وركع أمامها متوسلا وقال :

ـ ستظلين دائما إلهى العظيم متبوئة عرشك السماوى ، يغمرنى ضياؤك الوردى ، فأعبدك وأنا خاشع ذليل ؛ أما أنا فسأظل دائماً ذلك الصعلوك القذر والمهرج البشع المخيف .

وحدج الأوراق المالية شذراً وقال :

ـ أما هذه النقود فانى أمقتها ! أمقتها!!

وأخذ يمزقها بيده وأسنانه كأنه وحش يمزق فريسته .

وكانت وحيدة تراقبه ودمها يغلى وعيناها تشعان ناراً ، وأخيراً هجمت عليه كالمجنونة ، وجعلت تضربه بيديها وقدميها ، وهى تقول :

ـ اخرج يا ابن الكلب... اخرج يادون، ياسافل ، اخرج من بيتى ياحشاش ،ياسكرى... اخرج ،اخرج .

وخرج صلاح يجر نفسه كالكلب الذليل ، وعادت وحيدة إلى الكنبة وانطرحت عليها تبكى فى ألم وغيظ وهى تردد قائلة :

ـ ابن الكلب الدون ... ابن الكلب السافل ...